شهادة مراقب فرنسي

آخ يا بيروت!

ذات ١٣ نيسان، لم يكن يوم عمل رصين. الناس في عطلة. و«الويك إند»، وزع سكان العاصمة، بين نازحين إلى قرى وبلدات الجبل، وبين متسكعين في شارع الحمراء، زميل الشانزليزيه، في الشرق. وقد حاول الذين لزموا العاصمة الاستفادة من التنزيلات والأوكازيون، المعروضة في واجهات المحال الفخمة، باعتبارها تأخذهم، ولو بالحلم، الى باريس أو لندن أو نيويورك.

ذات ١٣ نيسان من العام ١٩٧٥، كان البعض يحوم حول دور السينما، غير مبال بالانتظار الطويل خلف حشود كبيرة من الناس، تنتظر شراء بطاقة من صالة سينما «الألدورادو» لحضور فيلم لبيار ريشار «Le Retour du grand blond» أو من سينما «الكوليزيه»، للتمتع بفيلم بوليسي، أو من سينما «الحمراء» التي كانت تعرض فيلما بعنوان: **Airports 75**.

وعلى الشاطئ، الشبيه بشواطئ مدينة نيس الفرنسية وجادة الجنرال ديغول، كانت عائلات تتمشى، على جاري عادتها، في يوم مشمس ناعم الهواء، وهي تقضم الفستق أو تقشر «البزورات».

وعلى شاطئ الرملة البيضاء، ثلة من شبان مراهقين يتمتعون بسباق للسيارات، بسيارات أميركية فخمة.

في الضفة الأخرى من المدينة، كانت الصورة مختلفة جدا. «الدراما» لعبة حقيقية، تجري فصولها بالدم. لم يعلم بها أحد من سكان العاصمة، والموزعين في الجبال والسهل والمناطق اللبنانية.

الاذاعة اللبنانية فضلت ممارسة الصمت، على حادثة البوسطة، وافتتحت أخبارها في الساعة السابعة والنصف مساء بأنباء انقلاب جرى في التشاد ومقتل تومبالباي.

ذات ١٣ نيسان، كان الفلسطينيون يحتفلون بالذكرى الأولى للعملية الفدائية التي حصلت في مستوطنة الخالصة، في كريات شمونة. ولدى انتهاء الاحتفال «المسلح» «فرت» حافلة من القافلة، وسلكت طريق عين الرمانة في طريقها الى مخيم «تل الزعتر»، وكانت الحافلة، تقل نساءً وأطفالاً وشيوخاً.

الشارع لم يكن نظيفاً. المسلحون كانوا منتشرين على مفرق «المرايا». وفجأة انطلق الرصاص، وسقط ٢٧ قتيلاً لم يتم سحبهم، بسبب استمرار القناصة بإطلاق النار في أكثر من اتجاه.

ذات ١٣ نيسان، فُتحت صفحة سوداء، وكان على اللبنانيين أن يقرأوها، طوال ١٧ عاما.

إنها صفحة الحرب الأهلية اللبنانية.

نامت بيروت بين المنامات الموحشة. وصباح اليوم التالي، فتح لبنان عينيه على هول المأساة. تصدر الخبر الصحف، وعنونت الصحيفة الفرنسية الوحيدة في لبنان على: ٣١ قتيلاً في عين الرمانة أمس. حادث دموي بين الكتائب والمقاومة. الحكومة والعواصم العربية تبذل جهودا لمنع التدهور.

وفي العناوين الأخرى: جنبلاط يطالب بإقالة الوزراء الكتائب، والجميل يقول: انها مؤامرة شيوعية وسنتصدى لها.

وهكذا، في ١٣ نيسان ١٩٧٥، تمركز أبطال الدراما التي ستحتل على امتداد ١٧ سنة. و«الأبطال» كما ارتسموا بالدم على الحافلة هم: المقاومة الفلسطينية، الكتائب اللبنانية، الحكومة اللبنانية، الحكومات العربية، وإسرائيل.

٢٥ سنة مرت على حادث البوسطة، ولم يُعرف ما إذا كان اللبنانيون قد اتعظوا، أم أنهم في فترة استراحة المحارب.

بيار فالو

(عن الفرنسية بتصرف)